دراسات

الإسلام في الغرب المعاصر: ثقل التاريخ وتحديات المستقبل

محمد غاشي

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020
جميع الحقوق محفوظة © 2020

الإسلام في الغرب المعاصر: ثقل التاريخ وتحديات المستقبل

محمد غاشي، جامعة محمد الخامس الرباط.

مقدمة

يستمرّ الحضور الإسلامي بالتمدد واحتلال حيّز ومكانة مهمة داخل التركيبة الاجتماعية والثقافية لأوروبا الغربية وامتدادها عبر المحيط الأطلسي - الولايات المتحدة الأمريكية-، هذا ما لاحظه الباحث الفرنسي **جيل كيبل** خلال ثمانينات القرن الماضي في كتابه "ضواحي الإسلام" « Les banlieues de l'islam). واليوم ثمة حقا واقع على الأرض، يتلخص في وجود ملايين المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيه، بعضهم أتى مهاجرا وآخرون ولدوا هناك، ويشكلون أقلية ذات وزن وتأثير وقابلية للنمو الديموغرافي السريع.

وارتباطاً بذلك، فإن ما يمكن تأكيده من خلال متابعة تطور الإسلام في جغرافيته المتجاوزة للحدود: الغرب، هو كون سطح الإسلام ظلّ محتشماً وبدا هادئاً وساكناً خلال العقود الثلاثة التي تلت الحرب العالمية الثانية، والتي تعرف حصراً بـ "الثلاثون المظفّرة" (1945-1975). بيد أنّ تحولاّت الجيوبوليتيكا ومتغيّرات الجيوستراتيجيا العالمية، خاصة مع لحظة تبدّد الاتحاد السوفيتي ونهاية حلف وارسو، والذي بنهايته انتهى الصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي، فضلاً عن ردمه للتقاطب الإيديولوجي رأسمالية / شيوعية، تاركاً مكانه للصراع الثقافي الذي كان من نتائجه إحياء التقاطب الرمزي الكلاسيكي غرب / إسلام، تحت وقع تأثير نبوءة "صدام الحضارات" (*Clash of Civilizations*)، التي بشّر بها المفكر الأمريكي **صامويل هينتنغتون**.

هاهنا، لم يعد خافياً منذ هذا التاريخ على أقل تقدير كون الإسلام قد اجتذب الرأي العام في الغرب، كما شغل مساحات واسعة من النقاش الدائر في أجندة الساسة والخبراء الإستراتيجيين، فضلاً عن اهتمام مراكز الدراسات والأبحاث (Think Thank). ما يمكن معاينته من خلال متابعة هذه النقاشات وحجم الإنتاج الأكاديمي حول الإسلام، هو تنامي وتيرة الشك والريبة تجاه الإسلام (الإسلاموفوبيا)، والتي شهدت تضخّماً واضحاً بلغت مداها مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما تبعها من أحداث إرهابية يتخفى مرتكبوها تحت عباءة الدين الإسلامي.

إجمالاً، سيكون من المفيد الإيماء هاهنا، إلى حقيقة مفادها أن: سمعة الإسلام وصورة المسلمين في الغرب قد تأثرت سلباً تحت وقع هذه الأحداث، بما يوحي بأن هناك اتجاهاً سائداً يغلب روح العداء والتنافر على الحوار والتواصل، ويغلب عناصر الصراع والصدام على مقومات الوفاق والالتقاء. هكذا، فبالموازاة مع كل حدث يوضع العيش المشترك دوماً

على المحك، ويعاد طرح السؤال عن ماهية هذا الدين - الإسلام - الذي يلاحق الغرب اليوم، ومن جملة تلك الأسئلة الشائعة المستعادة كل وقت وحين، نجد: هل العنف متأصل في الإسلام ومرافق لتاريخه؟ هل يتوافق الإسلام مع العلمانية؟ هل يمكن أنسنة الإسلام؟ هل يوجد في الإسلام تنوير؟ هل جوهر الإسلام مناف لمُثل الحداثة؟ إلخ.

من هذا المنطلق، تتنزل هذه الورقة البحثية التي نهدف من خلالها إلى تسليط الضوء على الإسلام داخل الحيز الجغرافي والسياسي والثقافي للحداثة الغربية في الحقبة المعاصرة - أي أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية - لاستجلاء واقع الجاليات المسلمة هنالك واستشراف تحديات المستقبل. بيد أن التدرج المنطقي السليم يفرض علينا هاهنا، موضعة الدراسة في إطار "المدى البعيد" (La longue durée) وفق المؤرخ **فرناند بروديل**، أو العوامل المتراكمة حسب المفكر **عزيز العظمة**، إذ لا يمكن فصل النتائج عن المقدمات، فاليوم يخرج من الأمس والغد ينبثق من اليوم تبعاً للمؤرخ **جاك لوغوف**.

1. تاريخية الحضور الإسلامي في الغرب

ليس الحضور الإسلامي بجديد على جغرافية أوروبا، لكنه كذلك في الفترة المعاصرة من مناحي مختلفة، في مقدمتها أنّ هذا التواجد لم يعد لأسباب دينية بحتة: نشر الدعوة الجديدة، مواصلة الفتوحات أو الجهاد على أراضي أوروبية كما كان الحال عليه خلال القرون الوسطى، بل أضحى له ارتباط بعوامل أخرى متشابكة ومركّبة: اقتصادية، اجتماعية، وسياسية بالأساس. بدأت تبرز بشكل جليّ مع نهاية العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث، بعدما تحول الإسلام من دين الأغلبية أو دين السلطة الحاكمة على الأقل، إلى دين الأقلية أو بالأحرى إلى ديانة سرّية لا مرئية مع لحظة سقوط آخر الممالك الإسلامية في الأندلس، والحديث هاهنا عن مملكة غرناطة 898 هـ/ 1492 م، وما أعقب هذا الحدث من تطهير وتعصب ديني، بلغ ذروته مع صدور قرار التّنصير الإجباري من قبل الإمبراطور الإسباني شارلكان عام 1525، الذي وضع المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يُنصّروا ويصيروا إسباناً مسيحيين، وإما أن يغادروا إسبانيا في غضون شهر إذ هم رفضوا ذلك [1].

على هذا النحو، وبالعودة إلى تاريخية هذا التواجد الإسلامي داخل الحيز الجغرافي والسياسي والديني للقارة الأوروبية، نجد المؤرخ الدانماركي **يورغن نيلسن** أحد كبار الباحثين في تاريخ الإسلام وقضايا المسلمين في الغرب قد أشار في واحدة من أشهر أعماله [2]، إلى أن تاريخ المسلمين في أوروبا الغربية قد مرّ بثلاث مراحل كبرى، لكل مرحلة خصوصيتها، وذلك على النحو الآتي: **المرحلة الأولى**، تبتدئ مع استمرار الفتوحات

---

[1] _ خوليو كارو باروخا، **مسلمو مملكة غرناطة بعد 1492**، ترجمة: جمال عبد الرحمن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2003.

[2] _ Jurgen Nielsen, *Muslims in Western Europe*, Edinburgh, University Press, 2016.

الإسلامية وتواجد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية لمدة ثمانية قرون وما ينيف عن القرنين في جنوب إيطاليا مع بقاء التأثير الإسلامي في كل من صقلية وسردينيا. **المرحلة الثانية**، تمثلت في الحضور الإسلامي داخل دول البلطيق وروسيا الاتحادية وجزيرة القرم وأوكرانيا عن طريق إسلام التّتار. **المرحلة الثالثة**، تجسّدت في النفوذ الإسلامي القوي داخل دول البلقان وأجزاء مهمة من أوروبا الشرقية والوسطى، خاصة مع التمدّد العثماني الذي وصل إلى حدود مشارف فيينا.

علاوة على هذه المحطات الثلاث الكبرى، نجد هناك **محطة أو مرحلة أخرى - رابعة-**، هي مرحلة ممتدة من هجرات النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هجرات النصف الثاني من القرن العشرين، وتعدّ هذه الأخيرة أي هجرات العمّال التي فتحت لها الدول الأوروبية الصناعية أبوابها، لحاجتها لاستقطاب السواعد الفتية من مستعمراتها في كل من آسيا وأفريقيا، من أجل إعادة بناء صنائعها ومدنها وبنيتها التحتية التي دمرتها الحرب، خاصة في ظل تواصل الازدهار الاقتصادي خلال العقود الثلاثة التي أعقبت الحرب (الثلاثون المظفّرة: 1945-1975)، المرحلة الأهم التي ساهمت بشكل فعّال في خلق تغيّر ديمغرافي داخل القارة خاصة، والغرب عامة.

مع هذا المسار التاريخي الممتد للتواجد الإسلامي داخل الفضاء الأوروبي، مع ما لحق ذلك من تغيّرات وتحوّلات تاريخية في المشهد السياسي والاجتماعي والثقافي لأوروبا الغربية. حيث بات الحديث عن أوروبات بصيغة التعدّد لا واحدة، لكل واحدة منها خصائصها التي تميّزها عن الأخرى، وضمن كل مرحلة تختلف زوايا النظر إلى الأديان بشكل عام والإسلام بشكل خاص كما ألمح إلى ذلك المؤرخ **هشام جعيط**، (أوروبا القروسطوية، أوروبا النهضة، أوروبا الأنوار، أوروبا الإمبريالية، وأوروبا اللبرالية ما بعد الكولونيالية) [3]. فضلاً عن تنوع وتعددية هذا الحضور الإسلامي إن على المستوى الإثني أو اللغوي / اللسني.

تأسيساً على ما قد سبق، سيكون مدار حديثنا بالأساس هو المرحلة الرابعة، أي تلك التي تبتدئ في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولا تزال مستمرّة وقائمة إلى حدود اللحظة الراهنة.

من الأهمّية بمكان، الإشارة هاهنا، إلى أنّ منطلقات عملية الهجرة هذه، تعود بالأساس إلى الحاجة الملحّة لبلدان أوروبا الغربية، خاصة الصناعية منها، إلى السواعد الفتية من أجل إعادة بناء مدنها وتهيئة صنائعها التي دمرتها الحرب، خاصة مع تواصل استثنائي للازدهار الاقتصادي في أوروبا خلال ما عرف بالثلاثين المظفّرة (1945-1975). والملاحظ في هذا الصدد، هو كون هجرة المسلمين كانت مؤقتة وهو ما يفهم أيضاً من خلال الاصطلاح الذي أطلق عليها آنئذ، أي هجرة (العمّال الضيوف) (Guest

---

[3] _ Hichem Digait, *L'Europe et L'Islam*, Paris, Seui, 1978, p. 22.

(workers)، فضلاً عن ذلك، كان التعامل مع هذا التواجد يكتسي طابعاً اجتماعياً صرفاً، على هذا النحو، جرى مخاطبة المهاجرين بأسماء بلدان المنشأ (أتراك، مغاربة، جزائريين، باكستانيين، تونسيين ... إلخ)، وليس حسب الملّة أي دينهم -المسلمين- كما هو الحال عليه اليوم [4].

بموازاة ذلك، عرفت سبعينيات القرن الماضي، إبرام عدّة اتفاقيات ثنائية بين بلدان المنشأ وبلدان الاستقبال، والتي نصّت على تسوية أوضاع المهاجرين القانونية ومنحهم حق الإقامة، فضلاً عن منحهم حق استقدام أبناءهم وزوجاتهم - لم شمل العائلات- على هذا النحو، جرى الانتقال من حضور مؤقّت إلى حضور دائم، كان من بين نتائجه المنظورة الأثر ارتفاع أعداد المسلمين داخل الفضاء الأوروبي، إلاّ أنّها على الرغم من ذلك، ظلّت تكتسي طابعاً اجتماعياً صرفاً، حتى عند سماع خطابات معادية - وهي نادرا ما حدثت-، فإنّها تكون موجهة ضد الأجانب (Xenophobia)، وليس تجاه المسلمين أو الإسلام كدين (Islamophobia).

بيد أنّ هذا الوضع سرعان ما تكدّر وتبدّد، إذ لم يكد عقد الثمانينيات من القرن العشرين يطوي سجلّه المليء بالأحداث الدرامية والتقلّبات الظرفية، حتى انقلبت معه النظرة إلى مجتمع المهاجرين. هكذا، فإنّ المتتبّع للخطابات الغربية حول مجتمع المهاجرين وقضايا الهجرة، لا يتطلّب كثيراً من الجهد ليلاحظ هيمنة الصّفة الدينية على وصف هذا الحضور، إذ جرى الانتقال والتحوّل في طبيعة الخطاب الأوروبي والغربي عموماً، من خطابات معادية للمهاجرين (عرب، أتراك، باكستانيين، إلخ)، إلى خطابات معادية للمسلمين والإسلام كدين (الإسلاموفوبيا). وها هنا، حقّ لنا أن نتساءل عن ما هي أسباب ودوافع هذا التّحوّل؟

ضمن هذه الإلمامة، كان نجاح الثورة الإسلامية في جمهورية إيران، وسقوط جدار برلين الذي كان إيذاناً بنهاية الحرب الباردة، البيئة التي ساهمت في إحداث تحوّلات جذرية في توجهات صنّاع القرار في الغرب. إذ منذ هذا التاريخ على أقل تقدير، أصبح الرأي العام الغربي يساق وفق مجموعة من المحددات الجديدة، لعلّ أهمها تبدّد وأفول التقاطب الإيديولوجي رأسمالية / شيوعية، تاركا مكانه للتقاطب الرمزي الكلاسيكي غرب / شرق، أو بالأحرى غرب / إسلام. في هذا الصّدد، سيكون من المفيد أن نعيد استحضار التصريح الشهير للمستشار السوفياتي أرباتوف، مخاطبًا الغرب قائلاً: "سنسدي إليكم أسوأ أنواع الخدمات سنحرمكم من وجود عدو ". على هذا النحو، نفهم الاشتغال الواعي على صنع العدو داخل الدوائر الغربية، وكيف جرى استبدال "العدو الأحمر" بـ "العدو الأخضر"، أو "العدو العالمي" بـ "العدو التصوّري"، إذا ما استعرنا عبارات **بيير كونيسا** [5].

---

[4] _ Stephen Castles, "The Guest-Worker in Western Europe", Within *International Migrations Review*, Vol. 20, December 1986.

[5] _ بيير كونيسا، **صناعة العدو: أو كيف تقتل بضمير مرتاح**، ترجمة: نبيل عجان، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط.2، 2018.

هكذا، على مشارف التسعينات من القرن العشرين، كان هذا التصور يخترق الأوساط الغربية، هاهنا، نجد كروغمان قد أشار إلى أنّه في أمريكا وأوروبا على حد سواء فئات غاضبة، ليس لأسباب اقتصادية، بل لاعتبارات ثقافية وأخلاقية تتصل بصورتها عن العالم الأليف والمثالي، التي تعتبر أنه كان سائدا حتى منتصف القرن العشرين في الغرب كله" [6].

عطفاً على ما قد سبق، تصاعدت موجة الإسلاموفوبيا داخل الأوساط الغربية، في وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، وتقارير مراكز الدراسات الأمنية والأبحاث الإستراتيجية، فضلاً عن الاستشهادات الدينية والسجالات السياسية، والتي ستبلغ أوجها ومداها مع أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر وما أعقبها، - العاصفة التي هبّت ولم تهدأ بعد – كما سنأتي على ذكره.

على ضوء المؤشرات التي سبق ذكرها، فإنّ هذا الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي هو الذي رسم معالم التوجه العام في الغرب، من المهم والمهم جدّا التشديد على أهمية هذا الأمر، ذلك أنّ سطح الإسلام والمسلمين، كان في البداية هادئا وساكنا ولا مرئيا، إلى أن ظهرت الثورة الإسلامية في إيران، وتبدّد الاتحاد السوفياتي، وما أعقبه من أحداث إرهابية باسم الدين، يتخفى مرتكبوها عادة تحت عباءة الدين الإسلامي.

هاهنا، حق لنا أن نتساءل عن جذور هذه الصورة النمطية في الغرب؟ وما أسباب رسوخها في ترسبات المخيال الجمعي الأوروبي والأمريكي؟ وكيف ساهمت وتساهم وسائل الإعلام في استعادتها وتأجيجها؟

2. الإسلام في المتخيل الغربي: المصادر، والنمطية المستدامة

يكشف التفكير في التاريخ المشترك لديناميكية الصلات والعلاقات بين الشرق والغرب، عن وجود خلفيات تاريخية وإيديولوجية ساهمت في صناعة خصوصية العلاقة بين الطرفين. هاهنا، نقف على حقيقة مفادها أن التصورات والصور النمطية عن الإسلام والمسلمين في وقتنا الراهن لها صدى ممتد وتاريخ طويل، يجد مصادره في لحظة اللقاء الأول بين العالمين، أو بمعنى آخر لحظة ظهور الإسلام كدين مبشر بخلاص جديد، أخذ ينافس المسيحية ويتوسع على حسابها.

هاهنا، إذا كنا نتفق على حقيقة أن التصورات الأوروبية عن الإسلام قد تشكلت خلال العصر الوسيط تحديداً، أي في زمن المبادلات الثقافية الأكثر فعالية، التي رسخت في الوعي المسيحي (الشعوري واللاشعوري) القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام [7]. فإننا يجب أن

---

[6] _ رضوان السيد، "من الاختلاف إلى الصراع: الخطابات الأمريكية والعربية بعد 11 سبتمبر"، ضمن **مجلة الاجتهاد**، العدد 54، ربيع عام 2002.

[7] _ Edward Said, Orientalism, p. 59 – 60.

نشير إلى فرادة أخرى وهي أن هذه التمثّلات في كثير من جوانبها، قد نشأت بارتباط مسبق وارتهان شرطي بنوع وطبيعة الموقف الكلاسيكي للكنيسة من الإسلام، وفق ما خلص إليه المؤرخ **أليسكي جورافسكي** [8].

وفضلاً عن هذا وذاك، فطبيعة التصورات السلبية المكوّنة عن الإسلام قد ظهرت بادئ الأمر لدى مسيحيي سوريا، ومن هناك انتقلت إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوروبيين. وفي ذات الاتجاه، عدّت كتابات **يوحنا الدمشقي، توما الأكويني، وفرنسيس الأسيزي** (...) من أبكر الدراسات المعبرة عن هذا المنحى المتحيز تجاه الإسلام كدين، وخاصة نبي الإسلام محمد [9].

وارتباطاً بذلك، فقد نهض المؤرخون البيزنطيون بالخصوص بمهمة التسويق لفكرة مفادها أن الإسلام غضب إلهي مسلط على عالم مسيحي لم يعد متمسكاً بدينه، كما عمدوا إلى تغذية المخيال الأوروبي بكم كبير من التشويه عن الإسلام ونبيه [10]. عطفاً على ذلك، فإن هذه الصورة قدر لها أن لا تقف عند حدود التدوين التاريخي، بل أضحت مع مضي الوقت مادة للسرديات الأدبية والقصص والمرويات الشعبية. وهي في كل ذلك، رجع صدى للدعاية البابوية التي قادتها الكنيسة خلال الحروب الصليبية، التي تشكل مسرح الوعي الذي تكونت فيه تلك الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين.

وانسجاماً مع هذا الموقف المتحيز ضد الإسلام والمعادي له في كثير من الأحيان، فإن دائرة التخيل الأوروبي في هذا المجال قد ظلت راسخة ومتجددة، وإن اتخذت أشكالاً وتجليات عديدة لكنها تتفق على إعادة تمثيله في صور سلبية - عنف الإسلام ودونية المسلمين -، وذلك تحت تأثير شعور "المواجهة المستمرة" [11]. وهو ما حدا بالمؤرخ **هشام جعيط** إلى تأكيد هذا المعطى المتعلق بأسس الحساسية الغربية تجاه الإسلام بما يطبعها من عداء وتحامل، مميزاً في الاتجاه عينه، لكنه يدعو في الوقت عينه، بين نظرتين: الأولى هي نظرة العالم الشعبي المترتبة عن تجربة الحروب الصليبية. والثانية هي التي ترتبت عن المدرسة السيكولائية خلال الصدام بين الإسلام والمسيحية على الأراضي الإيبيرية [12].

عموماً، يمكننا أن نلحظ نوعاً من فتور التعصب تجاه الإسلام في أوروبا النهضة والحداثة من دون أن يشهد زوالاً كاملاً. وبناء على ذلك، إذا حصل نوع - إن شئنا أن نسميه - من الاعتراف الأوروبي بالتفوق العلمي للعالم الإسلامي، والإسهامات الفعلية للعلماء

---

[8] _ أليسكي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، ترجمة: عالم المعرفة، الكويت، العدد 215، يناير 1978، صص. 58 – 59.

[9] _ نفسه.

[10] _ بدر الدين هوشاتي، "صورة الإسلام والمسلمين في المتخيل الأوروبي في القرون الوسطى"، ضمن ملف **الإسلام في الغرب**، إشراف: بسام الجمل، تنسيق: أنس الطريقي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، سلسلة ملفات بحثية، 2017.

[11] _ Edward Said, Ibid., p. 201- 202.

[12] _ Hicham Digait, L'Europe et L'Islam, p. 17 – 18.

المسلمين في حضارة عصر النهضة الأوروبية (La Renaissance). فإن النصف الثاني من القرن الخامس عشر - بدايات العصر الحديث - أو ما سمي حينها بـ "مشكلة الإسلام" قد عادت لتطفوا على السطح بقوة في كتابات الأوروبيين وفي دعوات الكنيسة البابوية، خاصة بعد حدث "فتح القسطنطينية" من طرف العثمانيين الذي شكل إيذاناً بصعود نجم إمبراطوريتهم [13]، ثم بعد قرار الطرد الذي أصدره الملك الإسباني بعد سقوط آخر معاقل الحكم الإسلامي بغرناطة، وما تبعه من قرارات اتسمت بكثير من التعصب كاقتراح بعض مستشاري فيليب الثالث اخصاء كل الذكور الموريسكيين، باعتبارهم مسلمين متخفين كي يمنع عودة الإسلام إلى شبه الجزيرة الأيبيرية .

وفي ذات الاتجاه، كانت أشهر تلك التعبيرات قد تمثلت في الرسالة الشهيرة التي وجهها البابا بيوس الثاني إلى السلطان العثماني محمد الثاني. والتي تصاعدت حدتها مع محاصرة الجيوش العثمانية لعاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسية (The Holy Roman Empire)التي حكمها آل الهابسبورغ آنئذ، والمقصود هاهنا، حصار فيينا الأول عام 1529.

وللحديث عن مؤشرات الاستمرارية للصور النمطية القروسطوية عن الإسلام في الوعي الأوروبي الحديث، يمكننا أن نلحظ تنويعات ينصرف الواحد منها دون أن ينصرف سابقه، وينطلق من مقدمات هي غير ما لدى غيره، لكنها تلتقي وتتقاطع معه في نتائجه. هاهنا، نجد الطائفة البروتستانتية بزعامة **مارتن لوثر** رغم انتقادها اللاذع للكنيسة الكاثوليكية وللبابوية بصفة عامة ورفضها التام لتعاليمها، غير أنها هي الأخرى لم تسلم من الانخراط في تلك الحملة الواسعة الرامية لتشويه الإسلام كدين، فرغم انتباهه - مارتن لوثر - إلى بعض أوجه التعصب في الولايات الألمانية تجاه الأتراك والمسلمين الذين كان يصفهم باسم "المحمديين" كشعب و "المحمدية" كعقيدة، غير أنه انتصر في الأخير للمسيحية التي رأى فيها الحق المطلق، في مقابل لصق صفة الضلالة بالمسلمين واليهود [14].

فيروس الاستعارات المهينة والمتحاملة على الإسلام والمسلمين، لم ينجوا منه حتى مفكري الأنوار الأكثر شهرة منذ القرن الثامن عشر فصعوداً. بيد أن المتغير الوحيد هو كون الإسلام هذه المرة ارتدى سترة أخرى، مشحونة بمضمون أيديولوجي جديد لترويج فكرة "رجعية الإسلام" وعدائيته التاريخية للتقدم والحداثة، ويكفي في هذا السياق الاستدلال على بعض كتابات فولتير، مونتيسكيو، ديدرو، وإرنست رينان.

وعلى أي حال، فإن تجذّر القلق بين العالمين قد استمر خلال الحقبة الممهّدة للإمبريالية والحقبة الكولونيالية، وهذا ما يبدو جلياً من خلال الفكر الاستشراقي بقسميه الكلاسيكي والجديد على حد سواء، حيث جرى هذه المرة تنميط الإسلام وتمثيله تمثيلاً

---

[13] _ محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص 152

[14] _ Almond, Deconstructing Luther'S Islam : Turks as curse or cure, Yearbook, Volume 3, Leiden, 2011, p. 619 – 654.

مصدره "النزعة الأورومركزية" التي تمأسست على إرادة التسلّط والهيمنة والتوحيد القسري في منظومة قيم يحددها الغرب وحده بحسبانه "المرجع" "الوصي" و"المثال الأعلى" الذي ينبغي أن يسود على الكون بأسره [15]. ووفقاً لهذه المقدمات التي تنم عن استعلاء وتفوق على الآخر غير الأوروبي، جرى هذه المرة تصوير الإسلام بمظهر "العقيدة الجامدة" و" ووصف الحكم الإسلامي بـ "الاستبداد" وسلوك المجتمعات الإسلامية بـ "تعصب البرابرة" المعادي للتفوق الأوروبي ورسالتها الحضارية ومهمتها النبيلة الكامنة في تحضير "الشعوب الملوّنة" [16].

صفوة القول، ليس عسيراً على الدارس والباحث في كل ما كتب حول الإسلام كدين والعالم الإسلامي كمجال والمسلمين كمجتمع، عدم قدرة الوعي الجمعي الغربي تجاوز ثقل العصور الوسطى. وهو ما يؤشر عنه استمرارية التنميط السلبي القائم على استصغار وشيطنة الآخر – المسلم - خلال الحقبة الحديثة والمعاصرة، بصفته عدوّاً تاريخياً ينبغي تشويهه وتطويقه ومحاصرته وربما القضاء عليه. صحيح أن منسوب هذا التحامل قد تراجعت حدته وخفت في أحايين كثيرة، لكن سرعان ما يعود إلى سالف عهده من خلال عملية استرجاع انتقائية للذاكرة، حيث تغطي لحظات المواجهة والصدام عن فترات السلام والتعايش والوئام، كما سنأتي على ذكره في الأسطر القليلة القادمة.

3. الإسلام في الغرب المعاصر و "الماضي الذي لم يتجاوز بعد"

سيكون من المفيد والمجانب للصواب هاهنا، التذكير بحقيقة مفادها أن التواجد الإسلامي خلال الحقبة المعاصرة وفي جغرافيته المتجاوزة للحدود: أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، قد بدا هادئا وساكنا خلال العقود الثلاثة الأولى التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

وارتباطاً بذلك، كان لبلدان أوروبا الغربية مجدّداً النصيب الأوفر من هذا الحضور، بفعل حاجتها لليد العاملة لإعادة بناء مدنها وصنائعها التي دمرتها الحرب، ابتداءً من إطلاق مشروع مارشال (The Marshal Plan)، الذي أسهم في إنعاش اقتصاديات بلدان أوروبا الغربية، التي بلغت معدلات نمو ناتجها القومي ما بين 15 % و 25 % خلال فترة تنفيذه، وهو ما انعكس إيجابا على العقدين اللاحقين حيث تواصل هذا النمو الاقتصادي، والمعروفة حصراً بـ "الثلاثون المظفرة" [17].

---

[15] _ عبد الإله بلقزيز، **نقد الثقافة الغربية: في الاستشراق والمركزية الأوروبية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، 2017، ص. 17.

[16] _ نفسه.

[17] _Barry Eichengreen and Marc Uzan, "The Marshall Plan: Economics effects and implications for Eastern Europe and the Former USSR", *within Economic Policy*, Apr 1992, pp. (14 – 75).

تقدونا الملاحظة سالفة الذكر إلى الإدلاء بأخرى، مفادها أن "مشروع مارشال" قد أسهم في توطيد العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوروبا الغربية، وهو ما بدا جلياً خلال "الحرب الباردة"، التي كانت مسرحاً للتنافس بين المعسكرين: الغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي.

في ضوء ما قيل أعلاه، من الواضح أن الحضور الإسلامي لم يعد مرتبطاً بأسباب دينية - نشر الدّعوة الجديدة - كما هو الحال عليه خلال العصر الوسيط، بل أضحى له ارتباط بعوامل اقتصادية واجتماعية بحتة تتمثل أساساً في تحسين سبل عيشها وحياة أكثر ازدهاراً ورخاءً. فضلاً عن ذلك، كان هذا الحضور مؤقتاً في طابعه، وهذا ما نفهمه من تسمية "العمال الضيوف"، ولعل هذا هو السبب الرئيس وراء عدم اهتمام الغرب وخاصة أوروبا بديانة العمال الوافدين في البداية.

من ناحية أخرى، إذا ما قمنا بانعطافة من دين الأغلبية (إسلام الآباء والأجداد) نحو إسلام الأقلية (حركات الإسلام السياسي)، وجدنا هذه الأخيرة وقتئذ على قائمة أولويات الأجندة الإيديولوجية للولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها الأوروبيين، الذين أقحموا الإسلام الحركي في خططهم للتصدي للخطر الأحمر المتمثل في الاتحاد السوفيتي / حلف وارسو [18].

على هذا النحو، رأى صقور البيت الأبيض في جماعة "الإخوان المسلمين" التي تعتبر أم الحركات الإسلامية "حصان طروادة" الجديد. هكذا، وبإيعاز من المؤرخ وكبير المستشرقين **برنارد لويس** تحركت إدارة الرئيس الأمريكي إيزنهاور للزج بالجماعة في معمعة الصراع بين المعسكرين، وذلك من خلال استمالة رموزها: البنا، رمضان، والمودودي وغيرهم. جنباً إلى جنب مع هذا الاستقطاب، قامت المخابرات الأمريكية بإطلاق حملات الدعاية لاستمالة قلوب المسلمين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل رمزاً للإيمان في مواجهة الإلحاد الشيوعي، ولعل أبرز دليل على ذلك برنامج "الخنزير الأحمر" [19].

أدت سياسات الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها التقليدية بريطانيا إلى تعزيز بزوغ قوة اليمين الإسلامي خلال فترة الحرب الباردة، حيث انخرطت قياداتها في المخطط الغربي دون مواربة إما طمعاً في استعادة مجد غابر أو تحقيقاً للحظوة. بيد أنها استيقظت على واقع الصدمة مباشرة مع انتهاء القطبية الثنائية، والتي بنهايتها انتهى الصراع الإيديولوجي رأسمالية / شيوعية، تاركاً مكانه للتقاطب الرمزي القديم إسلام / مسيحية أو شرق / غرب.

---

[18] _ Robert Dreyfuss, *Devil's the Game : How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam*, New York, 2005, pp. 65 – 92.

[19] _ Ibid.

ومع ذلك، بقي أن نشير في هذا الاتجاه أن التحول في موقف واشنطن لم يكن وليد اللحظة، بل إن بداياته بدأت تتشكّل في أعقاب نجاح الثورة الإسلامية في إيران - فصعوداً -، والتي فاجأت المحور الغربي بإطاحتها نظام الشاه محمد رضا بهلوي المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها.

من الآن فصاعداً، يجب التفاعل مع التحولات الجديدة في الساحة الإقليمية والدولية، هاهنا، كان خطاب ألكسندر أرباتوف المستشار الدبلوماسي لآخر رؤساء الاتحاد السوفيتي غورباتشوف، معبّراً بحق عن وعي جنيني أو فكر استباقي بقدوم هذا النموذج، بقوله: "سنسدي إليكم أسوأ أنواع الخدمات، سنحرمكم من وجود عدو". ومن هنا، يصبح السؤال: هل وجود العدو ضرورة؟ بل إن السؤال الأكثر أهمية هو ذلك الذي يتعلق بما إذا كان الإسلام هو العدو الجديد "الأخضر" الذي سيأخذ مكان العدو "الأحمر" السابق؟

في إجابته على هذا السؤال، ذهب الأكاديمي والدبلوماسي الفرنسي بيار كونيسا إلى الإقرار بأن وجود العدو مفيد لصهر الأمة، ولتأكيد قوتها، كما يمكن أن يكون مخرجاً بالنسبة إلى سلطة تواجه مشاكل على الصعيد الداخلي [20]. وقبله كان الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، قد كتب "إن من يحيا على محاربة عدوه، من مصلحته أن يدعه يعيش" (إنسان مفرط في إنسانيته).

---

[20] _ بيار كونيسا، **صنع العدو: أو كيف تقتل بضمير مرتاح**، ترجمة: نبيل عجان، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. 1، 2015، ص. 16.

بيبليوغرافيا

- **بالعربية**

- أليسكي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، ترجمة: عالم المعرفة، الكويت، العدد 215، يناير 1978، صص. 58 – 59.
- بدر الدين هوشاتي، "صورة الإسلام والمسلمين في المتخيل الأوروبي في القرون الوسطى"، ضمن ملف **الإسلام في الغرب**، إشراف: بسام الجمل، تنسيق: أنس الطريقي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، سلسلة ملفات بحثية، 2017.
- بيير كونيسا، **صناعة العدو: أو كيف تقتل بضمير مرتاح**، ترجمة: نبيل عجان، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط.2، 2018.
- خوليو كارو باروخا، **مسلمو مملكة غرناطة بعد 1492**، ترجمة: جمال عبد الرحمن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2003.
- رضوان السيد، "من الاختلاف إلى الصراع: الخطابات الأمريكية والعربية بعد 11 سبتمبر"، ضمن **مجلة الاجتهاد**، العدد 54، ربيع عام 2002.
- عبد الإله بلقزيز، **نقد الثقافة الغربية: في الاستشراق والمركزية الأوروبية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، 2017.
- محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي،
- Almond, Deconstructing Luther'S Islam: Turks as curse or cure, Yearbook, Volume 3, Leiden, 2011, p. 619 – 654.
- Barry Eichengreen and Marc Uzan, "The Marshall Plan: Economics effects and implications for Eastern Europe and the Former USSR", *within Economic Policy*, Apr 1992, pp. (14 – 75).
- Edward Said, Orientalism,.
- Hichem Digait, *L'Europe et L'Islam*, Paris, Seui, 1978.
- Jurgen Nielsen, *Muslims in Western Europe*, Edinburgh, University Press, 2016.

- Robert Dreyfuss, *Devil's the Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam*, New York, 2005, pp. 65 – 92.
- Stephen Castles, "The Guest-Worker in Western Europe", Within *International Migrations Review*, Vol. 20, December 1986.

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail.com

twitter.com/AfkaarCenter

facebook.com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020